العَرَبة

بقلم : عمر فتّال

لا يمكنكم تصور هلع حسن عندما قالت له أمه مضطربة: استيقظ يا حسن! فالساعة تجاوزت الثامنة بدقيقة. فقد هبّ واقفا ، وفي الحال ارتدى بذلته المدرسية ثم سارع إلى حمل حقيبته ، وكاد ينطلق ، وهو ينتعل النعل الذي يستعمله داخل البيت ، لولا أن أمه نبهته. ولما دعته إلى تناول وجبة الفطور قال في ارتباك: لا وقت لدي يا أماه! فكلها نصف ساعة على الأكثر ويلتحق التلاميذ بالفصول ، وأنا بعد في المنزل ، واليوم يوم امتحان.

– اعذرني يا بني لقد أيقظتك متأخرا ،آه ! لا يمكنك أن تتصور متى استسلمت للنوم؛ فالضرس آلم أختك عائشة لذلك بقيت إلى جانبها..

من غير أن يسمع حسن بقية اعتذار أمه ، طلب منها أن تدعو له بالتوفيق ،ثم انطلق لا يلوي على شيء. عند وصوله ساحة الحارة صاح فرحا: الحمد لله ، ها هي ذي عربة العم زكريا على وشك الذهاب إلى السوق الأسبوعي.

دون تردد عاود الركض بأقصى سرعة؛ فور وقوفه راح يقول للعم زكريا لاهثا: " لقد استيقظت متأخرا ، واليوم يوم امتحان .."

رد الرجل من غير أن يتلفت نحوه: وما ذنبي أنا في ذلك؟!

– أريد منك أن تدعني أركب العربة.

– غير ممكن؛ فالركاب كثيرون..

– أرجوك اسمح لي بالركوب ، سأصل متأخرا؛ إذا أنا سرت على قدمي..

– قلت لك: دعني وشأني؛ فأنا لا أعمل هنا بالمجان.

قالها وهو يحمل متاع أحد الشيوخ.

– أرجوك يا عم زكريا ، دعني أركب وعندما يعود أبي في المساء سأعطيك أجرتك.

– مسح العم زكريا العرق الذي سال على جبينه وخدّيه ثم قال في غضب: ابتعد عني يا ولد ، فلا تُمنِّ نفسك بالركوب.. أتسمع ..!؟

همهم الركاب بكلمات غير مفهومة ، قبل أن يقول أحدهم في لهجة حادة:" اتّكِلْ على الله يا زكريا فقد تأخرنا بعض الشيء".

تجمدت حركات حسن إلى جانب العربة لحظات وعلى خديّه سالت دمعتان وحين همَّ العم زكريا بالجلوس على مقعد القيادة سقطت من جيبه حافظة النقود دون أن ينتبه لها ، فخفق قلب حسن بشدة ، وما هي إلا ثوان معدودة حتى دارت عجلات العربة ، وشرعت تنهب الطريق ، فتقدم حسن صوب الحافظة ، وقد زادت خفقات قلبه ، انحنى.. أخذها ، فتحها فإذا هي تحتوي على قطع نقدية إلى جانب ثلاث أوراق من فئة العشرة دراهم.. أعاد إغلاقها.. قبض عليها بإحكام.. اقترب من وضعها في حقيبته المدرسية ، لكنه توقف عن ذلك:

– " ماذا تراني سأفعل.."!؟

– " الحق بصاحبها وسلمها له "

– "إنها لي مادمتُ قد وجدتُها..

– إنك تعرف صاحبها ورأيت كيف ضاعت منه"

– " نعم أعرف"

– " ولكن ترى ماذا فعل بي قبل لحظات"؟

– "وما علاقة هذا بذاك"؟!

– " أوليس من حقه أن لا يدعك تركب مع الركاب؟!

– "أوليس من حقي أن آخذ نقودا وجدتها ؟!

– " قلت لك: ناد العم زكريا وسلمه حافظة نقوده؛ فإن ما بها من عرق جبينه".

خطا حسن خطوات.. توقف من جديد.. طأطأ رأسه لحظة قبل أن يرفعها محركا شفتيه":

– " فلأعد إلى المنزل ، ولأشتر ما بدا لي".

– وماذا عن الامتحان؟!

– فلأضعها في حقيبتي المدرسية.. ولأركض للوصول إلى المدرسة في الوقت المحدد.. سألحق الآن بالعربة ، وأطلب من العم زكريا أن أركب كسائر الركاب ، أليست معي نقود كافية..!؟

– " وماذا لو رأى الحافظة ؟"

– " ومن أين له أن يراها ؟!

طفق يجري بسرعة ، وهو على تلك الحال ، لم يدر كيف أن صوت مُدرِّس الأخلاق جلجل في أذنيه!: اسمعوا يا تلاميذي ! فأنا لا أحب أبدا أن يحفظ التلميذ الدرس، دون أن يعمل بما جاء فيه". وقتها ابتلع ريقه ، وقد تجسدت أمام عينيه دروس السرقة ، والكذب، والأمانة ، وغيرها من الدروس التي قضى بعضاً من ساعات ليلة البارحة يحفظها ، فما كان منه إلا أن ضاعف جريه؛ وكأن أحداً يجبره على ذلك.

بدأ ينادي بأعلى صوته: العم زكريا: العم زكريا! غير أن هذا لم يعبأ بندائه.. واصل حسن جريه, وعند اقترابه من العربة صاح بصوت متقطع رافعا الحافظة بيده اليمنى " هذه حافظة نقودك قد سقطت من جيبك!!, هذه حافظتك

لحظتها تحسس العم زكريا جيب بذلته الزرقاء اللون, وفي الحال أوقف العربة.. ترجّل.. أخذها .. فتحها ثم احتضن الطفل قائلا:" جازاك الله خيراً يا ابني!! هيا تفضل اركب..اركب سأوصلك بإذن الله قبل أن يدق الجرس!!

جلس حسن إلى جانبه على مقعد القيادة, واسترسل الحصان يسابق العجلات؛ كما لو أنه عرف ما قام به الصغير حسن في حق صاحبه! عشر دقائق إثر ذلك, كان حسن أمام باب المدرسة.. دخل, وفي خفة توجه صوب صفوف التلاميذ المتراصة.

أما العم زكريا, فقد ظل يتابعه بعينين ثابتتين, ولسانه يدعو له بالتوفيق والنجاح..